القصص الديني

الحلقة الثامنة
قصص السيرة

الخندق

١٦

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمَنوا اذكُروا نِعمةَ اللّه عَليكم إذ جاءَتكم جنودٌ فأرسَلْنا عليهم رِيحًا وجنودًا لم تَرَوها ، وكانَ اللّه بما تَعمَلونَ بصيرا . إذْ جاءُوكم من فَوقِكُم ومن أسفَلَ منكم وإذ زاغَتِ الأبصارُ وبلَغتِ القُلوبُ الحناجرَ وتظُنّونَ باللّه الظُّنونا ، هُنالِك ابْتُلِيَ المؤمِنونَ وزُلْزِلُوا زِلزالاً شديدا . وإذْ يقولُ المنافِقونَ والذينَ فى قُلُوبِهم مَرَضٌ ما وَعَدَنا اللّهُ ورَسُولُهُ إلاّ غُرُورا ﴾ .

(قرآن كريم)

١

كانَ اليهـودُ يكرهُونَ محمـدًا ﷺ ، فلمَّـا رأَوْا أنَّ دِينَه ينتشِر ، وأنَّ أهـلَ المدينـة أصبَحـوا أقويـاءَ بـه ، فكَّـروا فى أن يفعلـوا شيئا ؛ ليقْضُـوا على رسـولَ اللّـه ، ويستَريحوا منـه . ولما كـانت قريـشٌ عـدُوَّهُ الأشَـدّ ، ذهـبَ بعضُ أشـرافِ اليهـودِ إلى مكـة ، لِيَتَّفِقوا مع قُريشٍ على حربِ المسلمين .

دخلَ اليهودُ على أبـى سُفيانَ وسـاداتِ قريـش ، وقالوا لهم :

ــ إنّا سنكونُ معكم عليه ، حتى نستأصِلَه .

ورأى بعضُ أشرافِ قريشٍ أن يَسـأَلَ اليهـودَ عـن دينِ محمد ، فقال :

ــ يـا مَعشَـرَ يهـود ، إنكـم أهـلُ الكتـابِ الأوَّل

« التوراة » ، والعِلم بما أصبَحنا نختَلِفُ فيه نحنُ ومحمد ، أفَدِيننا خَيرٌ أم دِينُه ؟

كانَ اليهودُ يحسدُونَ محمَّدا ، ويغتاظُونَ منه ، فقالوا :

ـ بل دينكُم خيرٌ من دِينِه ، وأنتم أولَى بالحَقِّ منه .

جعلَهم الحَسَدُ يقولون : إنَّ عِبادَةَ الأَصنامِ خيرٌ من عِبادَةِ اللّه الواحِد ، فأنْزَلَ اللّه فيهم : « أَلَمْ تَرَ إلى الَّذين أُوتُوا نَصِيبًا من الكِتابِ ، يؤمنونَ بالجِبْتِ والطَّاغُوت ، ويقولُونَ للذينَ كَفَرُوا : هؤلاء أَهْدَى من الذينَ آمَنوا سَبيلا . أولئِكَ الذينَ لَعَنَهم اللّه ، ومَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَنْ تَجدَ له نَصِيرا » .

ووافقَتْ قُرَيشٌ على أن تُحارِبَ محمَّدًا مع اليهود ، ولم يكتَفِ اليهودُ بالاتِّفاقِ معَ قريشٍ على ذلك ، بل خَرَجُوا يَتَّفِقُون مع القبائِلِ الأُخرى ؛ كانوا يُرِيدُونَ أن يَقْضُوا على الإِسلام ، وأن يُطْفِئُوا نُورَ اللّه .

٢

بلغَ المسلمينَ أنَّ اليهودَ ألَّبُوا عليهم قُريشًا والعرب ، وأنَّ أبا سُفيانَ قد خَرَجَ على رأسِ جيشِه لِيُقاتِلَهم ، فراحُوا يُفكِّرُون ماذا يفعلون ؛ إنهم لا يسْتَطِيعُونَ أن يُقاتِلُوا هذه القُوَى مُجْتَمِعة ، ولكنهم يستَطِيعُونَ أن يُدافِعُوا عن المدينة . إنَّ العربَ ما كانوا يعرِفونَ القِتالَ إلاَّ وَجهًا لِوجْه ، فكانَ الرأيُ أن يقِفَ المسلمونَ فى وجهِ قُوَّاتِ أبى سُفيان ؛ ولكنَّ سَلمانَ الفارِسيّ ، الذى خرج من بلاده يبحثُ عن الدِّينِ الجديد ، حتى قابَلَ رسولَ اللّه ، وأسْلَمَ ، رأى فى بِلادِه ما تَفعَلُهُ الجيوشُ

المُدَرَّبَةُ فى أثناءِ حِصار المدن ، فاقْتَرح حفْرَ خَندَقٍ عمِيقٍ واسِعٍ حولَ المدينة ، وقال :

ـ أرى يا رَسُولَ اللّه ، أن تَضرِبَ على المدينةِ خَنْدَقًا ، فَيُصبحَ بينَنا وبينَ المُشركين ، فلا يستَطِيعُوا اقتِحامَه .

أُعجِبَ النبيُّ ﷺ بهذا الرأى ، فتناوَلَ فأسًا ، وضَرَبَ به يَحْفِر الخندق ؛ وقام المسلمُون يحفِرُون حولَ المدينةِ خَندَقًا عميقا .

ونالَ التَّعبُ من الرِّجال ، فراح النَّبىُّ يُشَجِّعُهُم وهو ينقُلُ التُّرابَ ، كان يرتَجِزُ بكلماتِ ابنِ رَوَاحَة ، أحَدِ المسلِمين :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتَدَينا ... ولا تصدَّقْنا ولا صلَّينا

فأَنزِلَنْ سَكِينَةً علينا ... وثَبِّتِ الأقدامَ إن لاقَينا

والمشركُونَ قدْ بَغَوا علينا ... وإن أرادُوا فِتْنةً أبَينا

فراحَ المسلمون يُرَدِّدُون :

نحن الذينَ بايَعُوا محمَّدا ... على الجهادِ مابَقِينا أبدا

وراحَ سَلْمانُ يَضْرِبُ فى الخندَق ، فاعْتَرَضَتْه صخرة ، وكان رسولُ اللّه قريبًا منه ، فلما رآه يضرِب ، ورأى شِدَّة المكانِ عليه ، ذهبَ إليه ، وأخَذَ منه المِعْوَل ، فَضرَبَ به ضَرْبَة ، فَلَمَعَت تحتَ المِعْوَل بَرْقَة ، ثمَّ ضَرَبَ به ضَرْبةً أخرَى ، فَلَمَعَتْ تحَته بَرْقَةٌ أخرَى ، ثم ضَرَبَ به الثالثة ، فَلَمَعت بَرْقةٌ أخرَى .

فقال له سَلمان :

ـ بأبِى أنتَ وأمِّى ، يا رسولَ اللّه ! ما هذا الذى رأيتُ لمَعَهُ تحتَ المِعْوَلِ وأنتَ تضرِب ؟

قال له رسول اللّه :

ـ أوَقَدْ رأيتَ ذلك يا سَلمان ؟

ـ نعم .

قال رسولُ اللّه :

ـ امَّا الأولَى ، فإنَّ اللّـهَ فتَـحَ علىَّ بـابَ اليَمَن ، وأمَّا الثانية ، فإنَّ اللّه فتحَ علىَّ بابَ الشامِ والمغرِب ، وأمَّا الثالثة ، فإنَّ اللّه فتحَ علىَّ باب المَشْرِق .

فى هذه اللّحظة الشـديدة ، التى كـان المسـلمونَ يحفِـرُونَ فيهـا الخَندَق ، ولا يسْتَطِيعُونَ أن يخرُجُـوا فيها لأعدائِهم ، كان رسولُ اللّه على ثِقـةٍ مـن نَصـرِ اللّه ، وكان على يقِينٍ من أنَّ اللّهَ سينصُرُه ، وينشُـرُ دِينَه فى اليمن وفى الشام ، وفى المشرِق والمغرِب .

٣

جاءَ أبو سُـفيانَ فى جيشٍ عِدَّتُه عشرة آلاف ، وجاءَ رسولُ اللّه فى ثلاثةِ آلاف ؛ وكان الخَندَقُ بين الجيشينِ ، وأغلَقَ يهودُ بنى قُرَيظَةَ حِصنَهـم عليهـم ،

كانوا قدْ عـاهَدُوا رسـولَ اللّـه علـى أن يعِيشُـوا فى جِوارِ المسلِمين فى أمان ، ولكنَّ زَعِيمَ اليهـود الـذى اتّفَقَ مع قريشٍ على القتالِ ، جاءَ إلى الحِصن ، وقال لرئيسِ بنى قُرَيْظة :

ـ وَيْحَك ، افتَح لى .

فلم يشأ أَن يفتحَ له ؛ لأنّه كـانَ يعلَـمُ أنَّ مـا جـاء إليه إلاَّ ليطلبَ منه قِتالَ محمد ، وقال :

ـ إنّى قد عاهَدْتُ محمّدًا ، فَلَسْتُ بناقِضٍ ما بينِـى وبينَه ، ولم أرَ منه إلاَّ وَفاءً وصِدقًا .

ـ وَيْحَكْ ! افتحْ لى أكلّمك .

واستَمرَّ يُلِحُّ عليه ، حتى فَتَح له ، فقال له :

ـ ويْحَك ! جئتُكَ بعِزِّ الدَّهر .

ـ وما ذاك ؟

- جئتُكَ بقريشٍ والعرب ، قد عاهَدُونى أن لا يَبرَحُوا حتى نَستأصِلَ محمدًا ومَن معه .

فقال زعيم بنى قُرَيظة :

- ويحَك ! فَدَعْنى وما أنا علَيه ، فإنّى لم أر من محمدٍ إلاّ وَفاءً وصدقا .

إلاّ أنَّه قَبِلَ أخيرًا أن ينضمَّ بنو قُرَيظة ، حُلَفاءُ محمد ، إلى أعدائِه ؛ وبَلَغَ الخَبَرُ رسولَ اللّه ﷺ ، فأرسَلَ إلى بنى قُرَيظةَ ساداتِ المسلِمين فى المدينة ، وقال لهم :

- انطلِقُوا حتى تأتُوا هؤلاء القوم ، فَتَنْظُروا أحقٌّ ما بَلَغَنا عَنهم .

وذَهَبَ المسلمون إلى اليهود ، وسألُوهم عمَّا بَلَغَ رسولَ اللّه عنهم ، فقال اليهودُ فى سُخرِية :

- مَن رسولُ اللّه ، لا عَهدَ بيننَا وبينَ محمد .

وعَلِمَ ساداتُ المسلِمينَ فى المدينة ، أنَّ اليهودَ قد انضَمُّوا إلى أعداءِ المسلِمين ، فَعادُوا إلى رسولِ اللّه ، وأبلَغُوهُ أنَّ اليهودَ قد خانُوه ، ومالُوا إلى أعدائِه .

٤

حاوَل الكفّارُ أن يجتازُوا الخندق ، ولكنَّ سِهامَ المسلِمينَ كانت تُردُّهم . واستمرَّ حِصارُ قريشٍ للمسلمين قريبًا من شهر ، فَتضايَقَ أبو سُفيان ؛ كان يحسِبُ أن سَيَقْضِى على محمَّدٍ وأنصارِه فى يومٍ واحِد ، ثم يعودُ إلى مكة ، ولكن ذلك الخَندَقَ حالَ بينَه وبين أن يُحقّقَ هذا الأَمَل .

وقفزَ فُرسانٌ من قريشٍ من مكانٍ ضَيِّقٍ في الخندق ، فخرجَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ في نَفَرٍ من المسلمين وقابَلَهم ، ودارَت مُبارَزاتٌ بين فُرسانِ قريشٍ وفُرسانِ المسلمين ، انتهَت بانكِسارِ فُرسان قُريش . ولكنْ اشتَدَّ البردُ والجُوعُ على المسلمين ، ونَزَلَت بهم شِدَّةٌ عظيمةٌ بسببِ الحِصارِ ، فراحَ رسولُ اللّه يدعُو ربَّه :

ـ اللّهُمَّ مُنزِلَ الكتاب ، سريعَ الحساب ، اهزِمِ الأحزاب ، اللهمَّ اهزِمهم وزلزِلْهم .

واشتَدَّ البَردُ في اللَّيل ، وصفَرَتِ الرِّياح ، فدخل المسلمونَ خيامَهم ، وكانت في الخَندَق ، واشتَدَّت الرّيحُ فاقْتَلَعت خيامَ قُريش ، وطَرَحت قُدُورَهم ، فَدَبَّتِ الفَوضَى في مُعسكَرِهم ، وحاوَلُوا أن يَجِدُوا

مكانًا يَستَخْفُونَ فيه من غضَبِ السماء ، ولكنهــم لم يجدُوا مأوًى لهــم ، فاشتَدَّ بهمُ الكَرْب ، وضَعُفَتْ نُفُوسُهم ، وتَمَنَّوا أن تَكُفَّ الرِّياح ، لِيَعُــودُوا إلى مكة ، فقَد تحالَفَتِ الطبيعَةُ مع المسلمين .

وهَــدأتِ الرِّيــاح ، وأصبَــح الصَّبــاح ، فنظــرَ المسلمونَ إلى معسكرِ الأعداء ، فوَجَدُوا سُــكُونًا وهدوءا . قال النبيُّ ﷺ :

ــ مَن يأتِينا بخَبَرِ القَوم ؟

فقال الزُّبَيرُ بنُ العوَّام : « أنا » .

وخرجَ الزُّبَيرُ إلى معســكرِ قُريشٍ وهو يَسِيرُ فى حَذَر ، فلَم يَجِدْ إلاّ قُدُورًا مُنكَفِئة ، وخِيامًا مُقْتَلَعَة ، فعَادَ إلى المسلمينَ مسرورًا وصاح :

ــ رَحَلُوا .. رحَلُوا .

فَشاعَ الفَرحُ فى صُفُوفِ المسلِمينَ ، وهَتَفُوا :

ـ لا إلَه إلاّ اللّـه وحـدَه ، صَـدَقَ وَعْـدَه ، ونَصَـرَ عبـدَه ، وأعَـزَّ جُنْـدَه ، وهَـزَمَ الأحْـزَابَ وحْـدَه ، فلا شىءَ بَعدَه .

وحَمِدَ رسولُ اللّه ربَّه ، ثمَّ قال :

ـ الآنَ نَغْزُوهم ولا يَغزُونَنا ، نحنُ نسيرُ إليهم .

٥

انصَـرَفَ رسـولُ اللّـه ﷺ إلى دارِه ، وانصـرفَ المسلمون إلى دُورِهم ، ووضَعَ النّبىُّ سِلاحَه ، فجاءَه جِبرِيل ، وقال له :

ـ أوَقَدْ وَضَعْتَ السِّلاحَ يا رسولَ اللّه ؟

قال رسولُ اللّه ﷺ : « نعم » .

فقال جِبريل : « إنَّ اللّهَ عَزَّ وجَـلَّ يـأمُرُكَ بالمسِيرِ يا محمَّدُ إلى بنى قُرَيظَة ، فإنّى عامِدٌ إليهـم ، فمُزَلـزِلٌ بهم » .

خانَ اليهـودُ محمَّـدًا ، وتـآمَرُوا عليـه ، ولـولا أن لَطفَ اللّه به ، وأنقَذَه من حِصارِ أعدائِه ، لكـانَ فـى ذلكَ القضاءُ على الإِسـلام ، لذلـك كـانَ لابُـدَّ مـن حرب اليهود ، وأخراجهم من جوار المسلِمين ، فَلَـمْ يَعُدْ لهم أمان .

أمَرَ رسولُ اللّه مُؤَذّنا ، فأذّنَ فى النّاس :

ـ مَن كان سامِعًا مُطِيعًا ، فلا يُصَلّيَنَّ العَصرَ إلاّ فى بنى قُريظة .

واجْتَمعَ المسلِمُونَ فـى عُـدّةِ القِتـال ، وذهبُـوا إلى حصونِ بنى قُريظة ، فلَمَّـا رآهـم اليهـودُ ارتَجَفُـوا ، ودخلُـوا الحصُـــون ، فأغْلَقُوهـا عَليهـم ، ولم يكُـنْ

عندَهـــم طعـامٌ ولا شـرابٌ يكفِيهـم ، فَحـاصَرَهم المسلمون حتى طلَبُوا التّسلِيم .

عـرَضَ عليهم رسولُ اللّـهِ أن يُعْلِنُــوا إسـلامَهم فرفضُوا ، وعَرَضُوا عَلَيه أن يحكُمَ بينَهم وبينَ رسـولِ اللّه حَكم ، فلمَّا جاءَ الحَكَمُ رأى أنهم تـآمَرُوا علـى حُلَفـائِهم ، وأنَّ هـذه الخِيانـةَ جزاؤهـا القَتْـل ، فـأمَرَ بقتلِ الرِّجال ؛ ونُفِّذَ حُكمُ ذلك الحَكَمِ فى اليهـود ، فأصبَحَتِ المدينـةُ للمسلمِين ، أورَثَهُـم اللّـهُ إياهـا ، وكانَ اللّهُ على كلِّ شيء قدِيرا .